

إضاءات نقدية (مقالة محكمة)

السنة الثانية عشرة - العدد الخامس والأربعون - ربيع ١٤٠١ ش / آذار ٢٠٢٢ م

20.1001.1.22516573.2022.12.45.3.5

صص ٩١ - ١١٢

## دراسة مقارنة لموضوعات شعر رثاء المدن في الأندلس والشرق العربي

سيده محترم شب بابيشه\*

سيد بابك فرزانه (الكاتب المسؤول)\*\*

مرضيه قلى تبار\*\*\*

عليرضا باقر\*\*\*\*

### الملخص

إن رثاء المدن في الأدب العربي يعنى البكاء على المدن التي دمرتها الحروب والفتن أو أنواع الكوارث الطبيعية. وطالما كان هذا النوع من الرثاء من أهم الأغراض الشعرية في الأندلس والشرق العربي لأنه واكب وتيرة الأحداث والتغيرات السياسية وأعاد قراءة الأحداث. يسعى هذا المقال بطريقة وصفية تحليلية للتعريف ببعض هذه المراثي ودراسة موضوعات قصائد كلا القطرين باحثا عن وجوه الاشتراك والافتراق بينهما. وبحسب نتائج الدراسة هناك قواسم مشتركة عميقة في أفكار شعراء الأندلس والشرق العربي تنبع من الوضع السياسي والاجتماعي القائم في المجتمع آنذاك. من ناحية أخرى من خلال دراستنا لرثاء المدن المنهارة سنرى أن وصف ازدهار المدن ومجدها وازدهارها قبل الدمار والندب والتحسر على فقدان النعم والمشاعر الدينية هي من بين الموضوعات المشتركة في مراثي شعراء البلدين وفي نفس الوقت هناك اختلافات بينهما فمثلا في رثاء المدن الأندلسية نرى اهتماما بموضوعات كالاستغاثة والحنين الى الوطن لامتثالها في المراثي الشرقية. وبصورة عامة يمكن القول إن قصائد رثاء المدن في الأندلس جاءت بمعان وصور أكثر عمقا وتأثيرا في المتلقي وإن كان للشرق فضل الأسبقية في التطرق إلى هذا الفن الشعري.

الكلمات الدليلية: رثاء المدن في الشرق العربي، رثاء المدن في الأندلس، شعراء الشرق، شعراء الأندلس.

\* طالبة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها، فرع طهران الشمالية، جامعة آزاد الإسلامية، طهران، إيران  
\*\* أستاذ في قسم اللغة العربية وآدابها، فرع علوم وتحقيقات، جامعة آزاد الإسلامية، طهران، إيران  
Dr.farzaneh@gmail.com

\*\*\* أستاذة مساعدة في قسم اللغة العربية وآدابها، فرع طهران الشمالية، جامعة آزاد الإسلامية، طهران، إيران  
\*\*\*\* أستاذ مساعد في اللغة العربية وآدابها، فرع طهران المركزية، جامعة آزاد الإسلامية، طهران، إيران  
تاريخ الاستلام: ١٤٤١/١٢/١٨ ق  
تاريخ القبول: ١٤٤٢/٠٧/٠٨ ق

## المقدمة

يعد الرثاء من إحدى أغراض الشعر التي طالما نظر إليها الشعراء وموضوع هذا النوع من الشعر هو البكاء والحداد على الراحلين وذكر فضائلهم وصفاتهم الحسنة ويمكن أن يكون الحداد على ملوك الزمان وكبار رجال العلم والسياسة والأبطال والأصدقاء والأقارب والزوجة والأولاد. وهناك نوع من الرثاء اشتهر في الأدب العربي بـ"رثاء المدن" وذلك أن يقوم الشاعر بتأليف قصائد تراثي المدن والبلاد التي تم تدميرها إثر الكوارث الطبيعية أو الحروب التي حدثت في فترة من الزمن. يعرف هذا النوع من أبيضاب «شعر النكبات والكوارث، الشعر الحزين، الشعر الوطني، ندب الدول والبلدان.» (ضيف، ١٩٥٥م: ٤٧-٤٠؛ بهجت، ١٩٨٨م: ٣٠٢) وتكون المشاعر والعواطف في هذا الأسلوب أعمق ويتميز بالتعبير الحزين وقوة أثر في الكلام.

يختلف الباحثين في أصل نشوء هذا الشعر اذ يعتقد البعض أنها ظهرت في الشرق لأول مرة كما يشير إليها أحمد مكي: «بكاء المدن الزاهرة شعراً حين تأتي عليها الفتن المدمرة، والممالك حين تذهب بها الثورات العاتية، له أصول مشرقية، أول ما نلتقى بها في تلك الدموع الغزيرة التي ذرفها الشعراء على بغداد أثناء الفتنة بين الأمين والمأمون عام ١٩٧ق = ٨١٢م.» (مكي، ١٩٨٧م: ٢٠١) كما يؤمن شوقي ضيف بذلك: «فقد كانت الكتلة الاندلسية تنساق نحو التقليد المشرقي بكل ما فيه... وما آرائنا أبعد إذا قلت أن الأندلس كانت تستمد نهضتها وحياتها من بغداد شأنها في ذلك شأن الاقاليم الاخرى.» (ضيف، ١٩٦٠م: ٤١٢) في حين أن البعض اعتبر هذا الرأي مبالغاً فيه إلى حد ما بقولهم: «لا يخلو هذا القول - في نظري - من المبالغة والمغالاة برغم ذلك فان للأدب الأندلسي شخصية متميزة وطابعا خاصا ولا ندرى ماذا نسمى ابتكارهم لفن الموشحات، وافتنانهم في اختراع الصور النابضة من شعر الطبيعة.» (الكفاوين، ١٩٨٤م: ٤٥٧-٤٥٨)

لكن فريق آخر يعزو رثاء المدن إلى المغرب الإسلامي فـ«منهم من فرق بين رثاء المدن ورثاء الممالك فأطلق الأول على تلك المدن التي سقطت في يد الإسبان واستلبت من أيدي المسلمين فبكاها الشعراء، وأطلق الثاني على دول ملوك الطوائف

التي سقطت بدخول المرابطين الى الاندلس، وما نظمه الشعراء من قصائد شعرية تأسى وتأسف على المجد الزائل والسيادة الآفلة لهؤلاء الملوك. ويصح أن ينسحب هذا المفهوم على المدن التي سقطت وخربت بفعل الفتن التي طرأت على الأندلس بسبب فساد الأحوال السياسية، وتَرَدِّيها.» (بهجت، ١٩٨٨م: ٣٠٣)

وهكذا يتحدث أحمد مكى عن كيفية نشوء المراثى الأندلسية «أما في الأندلس فولد هذا الشعر بين الأحداث المتلاحقة، ومن الصراع المستمر بين الأحزاب المختلفة التي قامت على أنقاض الخلافة المنهارة، وبين الأندلسيين وغزاتهم من أفريقية، وبينهم وبين النصارى فى شمال وطنهم، ومهد له التغنى بحب الوطن قرية أو ضعيفة، ومدينة أو عاصمة، وكل الأرض التي جابها الشاعر حباً فى الرحلة، أو طلباً للرفد والمتعة، يصف ما على وديانها من زهر وثمر، وما فى سمائها من برق وسحب وما يخترقها من بحيرات وأنهار، وما يتحرك عليها من طير وحيوان وما له فيها من صداقات وذكريات، ومجالس أنس وشراب. فإذا افتقد ذلك غريباً حن إليه، وإذا ذهب به الحرب بكاه، وكان لنا مع هذه المشاعر شعر يرثى المدن الذاهبة، والممالك الضائعة، والأرض تسقط فى يد العدو، ويصوّر فى جوى صادق فواجع المسلمين.» (مكى، ١٩٨٧م: ٢٠٤-٢٠٥)

ورغم أن شعراء الشرق الإسلامى والأندلس قد اختبروا شعر رثاء المدن وكتبوا قصائد رائعة فى هذا المجال إلا أن المؤكد أن هذا الفن الشعرى لم يزدهر فى الشرق الإسلامى كما فى الأندلس. ولعل السبب فى ذلك أن وتيرة الأحداث والتطورات السياسية والاجتماعية فى الأندلس كانت متسارعة آنذاك لأنه كان الصليبيون ينوون طرد المسلمين من هذه الأرض مما أدى إلى مواجهة بينهم. وعليه فاللجوء إلى قصائد رثاء المدن يأخذ جانبا كبيرا من الأهمية بالنسبة للمؤرخين بهدف إنارة أجزاء من التاريخ السياسى للمسلمين خاصة وأن معظم هذه القصائد لها طابع الحقيقة أو قريب من الواقع. وبناءً على ذلك يسعى هذا البحث إلى دراسة أهم قصائد رثاء المدن العربية فى الشرق والغرب والتي أوضحت المساحات السياسية والثقافية والدينية للمدن المحتلة ويتطرق بنهج تحليلى وصفى لموضوعات وخصائص كل من هذه القصائد للتعبير.

## خلفية البحث

تم تأليف العديد من الدراسات والأبحاث حول رثاء المدن والممالك بما في ذلك كتاب *رثاء في الشعر العربي* (بيروت، ٢٠٠٨م) لعباس الحلبي؛ *شعر الرثاء في عصر ملوك الطوائف في الأندلس لعبد اللطيف عيسى* (الأردن: ٢٠١٣م)، ومقال بعنوان «فن الرثاء بين عصرين المملوكي والعثماني» لنبيل خالد أبوعلی (مجلة الجامعة الإسلامية، ج ١٧، العدد ٢، يونيو ٢٠٠٩م، غزة) و«تجليات سقوط المدن الأندلسية في الشعر الأندلسي من (٤٥٦ق - نهاية القرن السابع الهجري)» تأليف آمنة سليمان البدوي (دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجامعة الأردنية، المجلد ٤٠، العدد ٢، ٢٠١٣). يمكن أيضاً قراءة المقالات التالية في المصادر اللاتينية: «البيري: "موقف أدبي" بقلم نيكولا كاربنتيير (جامعة برشلونة: ٢٠١٦م)؛ القصيدة الأندلسية المجهولة لمعركة "غرناطة" بقلم سامي حنا (الدراسات الآسيوية والأفريقية، الفصل الأول، بورتلاند، ٢٠٠٠م، ص ٥١-٥٦)»<sup>٢</sup> يذكر أن مؤلفي هذه الدراسات قاموا في الأغلب بجمع وتحليل بعض قصائد الرثاء في عصور مختلفة لكن تهدف هذه المقالة إلى دراسة وتحليل مراثي المدن العربية الأندلسية والشرقية هادفاً مقارنة الموضوعات والمضامين المحددة لقصائد كل من هذين القطرين والتي لم يتم دراستها حتى الآن.

## أسئلة البحث

ما هي أوجه الاشتراك والافتراق في مراثي المدن الشرقية والأندلسية؟

## فرضية البحث

بسبب وقوع الحروب الصليبية والسقوط المتعاقب لمدن الأندلس أصبحت تقنية رثاء المدن في الأندلس أكثر نضجا من نظيرتها في الشرق الإسلامي.

1. Nicola carpentieri. «Abu ISHAQ AL-ILBIRI: A LITERARY REVISITATION». MEDIEVALIA.1/19. 2016.

2. Sami A. HANNA. AN ANONYMOUS ANDALUSIAN ELEGY ON THE WAR OF GRANADA. portland. USA. 2000.

## رثاء المدن في الشرق الاسلامي

بسبب انتشار الحروب والفتن والكوارث الطبيعية المدمرة يحتل رثاء المدن مكانة خاصة في الأدب العربي في الشرق الإسلامي وذلك يعني «بكاء المدن التي أصابها الدمار والخراب.» (رشيد، ١٩٨٩م: ٣٩) وضاعت نتيجة للحروب والفتن الخارجية أو الكوارث الطبيعية مثل الفيضانات والزلازل أو وقعت عرضة للخراب والنهب وحرقت الأماكن والمعابد. وفي هذا الصدد كتب المؤرخون عن المدن المحتلة التي تسقط مثل أوراق الشجر المتساقطة واحدة تلو الأخرى: «لقد رأينا مدناً في المشرق تتساقط أوراق الشجر، تستوجب الرثاء والبكاء، كما سقطت بغداد في يد التتار، وأزالوا كل ما فيها من مظاهر مدنية وحضارة، وفعل التتار فيها ما لا يقل عما فعله الإسبان في الأندلس، وغزا هولاءكو وتيمور لنك ونحوهما بلاد الشام.» (أمين، ١٩٩٩م: ٢٨٧/٣) المدينة جديرة بالثناء عند الشاعر لأنه تثير المشاعر والذكريات كمكان مهم وأساسى ومكان للتعود عليه. لذلك من الطبيعي أنه في حالة الدمار ووقوع حدث مؤسف له يلجأ الشاعر إلى مشاعره ويرثي المكان بمجموعة متنوعة من العبارات الصادقة. إذا ف«الإحساس بفقد المكان إحساس عميق، ينبثق من صميم وجدان المرء وعواطفه.» (الطربولى، ٢٠١٢م: ٣٢٦، ١٣) رثاء المدن والدول المدمرة وهو ذو جذور شرقية لا يتجلى فقط في قصائد العصر العباسى ولكن أيضا في الشعر الجاهلى منها قصائد امرؤ القيس (٨٠-١٣٠ ق / ٤٩٦-٥٤٤ م) وزهير (١٣ ق / ٦٠٩ م) وعنترة (حوالى ٢٢ق / ٦٠١م) بكاء على آثار "دائرة جلجل" و"دار عبلة" و"دمنة أم أوفى" و"بدار عبلة" أو أسود بن يعفر (٥٨٥ م) الذى يرثى آل المحرق (ت ٢٦٨-٦٣٢ق) فى عظمتهم وحضارتهم ويكى على أنقاض قصور "خورنق" و"سدير" و"سنداد" وهذا الاعشى الأكبر (٦٢٨م) يعرض أصابعه حسرة على قصر اليمان الرائع. (اليومى، ١٩٨٠م: ٢١٢؛ ضيف، تاريخ الأدب العربى عصر الدول والإمارات الأندلس، ٣٣٨؛ الأعشى، ديوان، ١٦٦/٢) تُظهر دراسة هذه الأماكن المراثية فى الشعر الجاهلى أن «لأكثرها قيمة رمزية وأن حالة الشاعر كانت تتبع من جو حنين أكثر من كونها منبعثا من جو مادى، وكانت فرصة للتعبير عن الشعور بالضياح والحنين إلى الماضى ومقدمة إلى غايات

وأهداف أخرى.» (الينسون، ٢٠٠٩م: ١٨-١٧) لكن في العصر العباسي أدى ارتفاع الفتن والحروب والكوارث الطبيعية والقتل الجماعي للناس من جهة واهتمام الشعراء بوطنهم إلى أن يصبح رثاء المدن فناً مستقلاً ويبكى الشعراء مدنها في صور مشحونة بالمشاعر والعواطف الوجدانية إذ «كانت المدينة في العصر العباسي قد صارت تمثل كياناً له معنى ووجود في نفوس أهلها وإن أهلها قد صاروا تربطهم بها روابط مادية ومعنوية وقد تولد في نفوسهم -نتيجة لذلك- شعور إنساني نبيل إزاء المدينة عبروا عنه في صدق وحرارة عندما رأوا الخراب والدمار يحل بها كأنهم فقدوا بها عزيزاً لديهم وهكذا برز في العصر العباسي إطار جديد للرثاء هو رثاء المدن. وقد كان جديداً بكل المعاني الكلمة، إذ إن علاقة الإنسان العربي بالمدينة لم تتوطد من قبل بالشكل الذي توطدت به في العصر العباسي. هذا من جهة، ومن جهة أخرى لم تشهد المدن الإسلامية قبل هذا العصر من الدمار والتخريب...» (الحلبي، ٢٠٠٨م: ٢٢٩) وبمعنى آخر مع سقوط بغداد بيد التتار (عام ٦٥٦ق) واجتياح بعض المدن - بما في ذلك البصرة ودمشق - اتخذ رثاء المدن شكلاً أكثر نضجاً واكتمالاً وأصبح أسلوباً مستقلاً بحيث نزع الشعراء إلى رثاء بغداد ومدن عربية أخرى وأنتجوا بذلك أروع قصائد يثير المشاعر ويحرك الهمم تجاه الوطن والأرض.

### رثاء المدن في المغرب الإسلامي

كان رثاء المدن في الأندلس من أهم الأغراض الشعرية وقد نجح هذا الأسلوب في تحليل الأحداث متماشياً مع وتيرة التطورات السياسية. وبعبارة أخرى فإن رثاء مدن الأندلس يعكس طبيعة التطورات السياسية في فترات مختلفة ومن سماته البارزة أن الشاعر كان لديه إدراك كامل للموقف ويشاهد الأحداث بشكل مباشر. وقد أدى ذلك إلى نضج واكتمال تجربة الشاعر الفنية. فيبدو أن قصائد الشعراء في هذا المجال انبثقت من صميم غرائزهم وطبيعته وإذا رأينا حجم شعر رثاء المدن في أرض الأندلس هو أكثر بكثير من بلاد إسلامية أخرى ذلك لكثرة الغارات والحروب المدمرة في الأندلس كما يصفها شوقي ضيف «قد أخذ الإسبان الشماليون يستخلصونها لأنفسهم، وكانت

كل مدينة تسقط لا تعود أبداً، والمسلمون يرون ذلك رأى العين، يرون ما يهدد ديارهم من غزو ودمار، وكلمتهم متفرقة وأهواؤهم غير مجتمعة ينادب الأخ وتنادب المدينة أختها، والعدو على الأبواب يتربص بهم الدوائر. وما زال الشعراء هناك يجذرون وينذرون ويستغيثون ويستنصرون، وكلما ضاعت بلدة أو مدينة ذرفوا الدموع حارة سخينة. ومن البلدان التي أكثر الشعراء من رثائها ونديها حين استولى عليها الأسبان طليطلة وبلنسية وشاطبة وقرطبة وجيان وإشبيلية. «(ضيف، ١٩٥٥م: ٤٩)

وهذا عبدالله الزيات في كتابه "رثاء المدن في الشعر الأندلسي" بعد أن درس بعض قصائد الرثاء الأندلسية خلص إلى أن سقوط المدن الأندلسية كان نتيجة عاملين رئيسيين: الأول المدن التي سقطت في فتن وثورات داخلية والشعراء الذين بكوا هذا السقوط: قرطبة (سقوط ١٠١٣م)، البيرة، المرية (سقوط ٤٨٤ق/١٠٩١م) والثاني المدن التي سقطت أمام الزحف الصليبي والشعراء الذين رثوها: برشتر (سقوط ١٠٦٤م)، طليطلة (سقوط ١٠٨٥م)، سهيل (سقوط ٥٧٧ق/١١٨١م)، قرطبة (سقوط ١٢٣٦م)، بلنسية (سقوط ١٢٣٨م)، جيان (سقوط ٦٤٢ق/١٢٤٦-١٢٤٤م)، إشبيلية (سقوط ١٢٤٨م)، غرناطة (سقوط ١٤٩٢م). (الزيات، ١٩٩٠م: ١٣٤، ١٣٥، ١٦٨، ١٨٣، ...، ٣٢٠؛ أكبرگ، ١٧؛ الينسون، ٢٠٠٩م: ٧١)

### أوجه التشابه في مراثي المدن الشرقية و الأندلسية

من بين المواضيع الشائعة في رثاء مدن الأندلس والشرق العربي يمكن الإشارة إلى وصف ازدهار المدن ومجدها ورونقها قبل الدمار والحنين إلى الوطن، الدعوة إلى الوحدة والتحرير على الجهاد، ذكر أسباب السقوط، ظلم الناس والجور والاستبداد، تنبيه العاطفة الدينية مزوجة بالعاطفة الإنسانية، استصراخ الشاعر وطلب النجدة من المسلمين، اصطناع الحكمة والحديث عن مصائب الدهر و... (الشكعه، ٢٠١٤م: ٥٦١-٥٦٠، الزيات، ١٩٩٠م: ٤٠٤، ٤٢٦، ٤٤١، ٤٥٣، ٤٦٤، ٤٨٧) يقول الينسون في مقاله "العودة إلى الأندلس: شعرية الضياع والحنين إلى الماضي في الأدب العربي والعبيراني في العصور الوسطى": "ومن أهم السمات الأدبية المشتركة في رثاء المدن الضائعة

والتي يمكن العثور عليها في جميع قصائد رثاء المدن هي: التكرار، ذكر الأماكن الشرقية في القصائد الغربية، صورة الماء في قصائد الرثاء و... (الينسون، ٢٠٠٩م: ٢٥-٢٦، ٢٩-٣٠، ٣٦)

### وصف ازدهار المدن و مجدها قبل الدمار

وصف المدينة قبل الفتنة ووقوع الحادثة من الموضوعات التي أدرجها شعراء الشرق والغرب الإسلامي في قصائدهم لرثاء المدن وعبروا عن حزنهم من خلال تصوير المدن قبل خرابها. فترى الخريبي (أوائل القرن الثالث الهجري) في رثاء مدينة بغداد يعبر عن حزنه الشديد على الأحداث التي طغت على المدينة ويعرب عن حزنه بوصف جمال مدينة بغداد ونضارتها ورحابتها ومجدها وازدهارها. فالشاعر في مطلع قصيدته اعتبر بغداد عروسا ذات مظهر ساحر ومغرى، وللإعراب عن الأسف على ضياع الازدهار وحضارة البلد الإسلامي -وهو بغداد- يستخدم عناصر تصويرية مختلفة. وهو يهاجم خلفاء عصره ويعتبرهم السبب الرئيس لهذا الدمار وهكذا بلغة بسيطة وبلغية وبعيدة عن التصنع يلقي حزنه العميق على الجمهور ويقول:

قالوا: ولم يلعب الزمان ببغداد  
 إذ هي مثل العروس باطنها  
 داد و تعثر بها عواثرها  
 مشوق للفتى و ظاهرها  
 جنة خلد و دار مغبطة  
 قل من النائبات واترها

(الطبري، ١٩٦٦م: ٨ / ٤٤٨)

سقوط بغداد على يد المغول عام ٦٥٦ق / ١٢٥٨م وآثار هذه الحرب الدموية والقتل الوحشي انعكست في شعر كثير من الشعراء آنذاك. فللتنوخي قصيدة في هذا المجال تستحق النظر وهذا مطلعها:

تأج الخلافة والرُبُع الذي شُرِّفَتْ به المعالم قد عَفَّاه إقفارُ

(ابن تغرى بردى، ١٩٦٣م: ٧ / ٥١)

يشير الشاعر إلى ازدهار ومجد العصر الذهبي في أيام حكم العباسيين الذين كانوا ذات يوم زعماء لأكثر الحضارات رقيا. واليوم تلك المدينة التي كانت في يوم من

الأيام مهد العلم ومركز للمعارف وعاصمة الخلافة العباسية تحولت الآن إلى رماد جراء هجوم المغول. في هذه القصيدة يصور الشاعر الوجود والازدهار والسلطة التي تليها العدم والانهيار والفناء.

وهناك قصيدة مؤثرة للسرى الرفاء يبكى فيها الشاعر المدينة وذلك بعد حدوث فيضان نهر الموصل والذي أدى تدمير منازل الناس وتشويه صورة المدينة. ويعتبر الشاعر الكوارث الطبيعية سببا في دمار الموصل والتي اجتاحت هذه المدينة وغيرت وجه الأرض وما لها من ازدهار وخضرة وتأتى كلها غالبا في أسلوب يتميز بالبساطة والوضوح يعبر فيه الشاعر عن الرعب والخوف والقلق والفرح الذي يدور في المدينة ومن خلال ذلك حاول أن يذكر فضائل مدينة الموصل ومحامدها ويتذكر الأيام الخوالي:

مَصَّتْ نَوْمَةَ التَّعْرِيسِ فِي ظِلِّ أَمْنِهِ      وَ أَعَقَبَهَا لَيْلُ السَّلِيمِ الْمُسَهَّدِ  
أَرَى بِلْدًا يَشْكُو مِنَ الْمَاءِ مِثْلَ مَا      شَكَا النِّعْمُ مِنْ حَدِّ الْحُسَامِ الْمُهْتَدِ

(السرى الرفاء، ١٩٩٦م: ١٦٧)

وقد وصف شعراء الأندلس مثل شعراء الشرق جمال مدن الأندلس قبل وقوع الأحداث للتعبير عن حزنهم وأسفهم على فقدان أراضيهم وعبروا للجمهور عن أسفهم من خلال وصفهم لمجد المدينة الماضي ورونقها قبل الخراب.

ومن ذلك قصة سقوط مدينة بلنسية عام ١٢٣٨ م وما حلت بها من مصائب فترى ابن عميرة المخزومي (٦٥٨ق / ١٢٥٨ م) قام بوصف جمال هذه المدينة وقد تأثر بما حل بها من خيانة وخراب إذ يقول:

أَمَا بِلَنْسِيَّةٍ فَمَشَوَى كَافِرٌ      حَفَّتْ بِهِ فِي عُقْرِهَا كُفَّارُهُ  
زَرَعٌ مِنَ الْمَكْرُوهِ حَلَّ حَصَادُهُ      بِيَدِ الْعَدُوِّ غَدَاةَ لُجِّ حِصَارِهِ  
وَعَزِيمَةٌ لِلشُّرِكِ جَعَجَعَ بِأَهْدَى      أَنْصَارُهَا إِذْ خَانَهُ أَنْصَارُهُ  
مَا كَانَ ذَاكَ الْمَصْرُ إِلَّا جَنَّةً      لِلْحُسْنِ تَجْرَى تَحْتَهَا الْأَنْهَارُهُ

(ابن الأبار، ١٩٨٦م: ٢١٤ - ٢١٥)

من السمات البارزة لهذه القصيدة استخدام اللغة المقارنة لوصف الماضي والحاضر للمدن المحتلة والتي لعبت دورا مهما في إثارة مشاعر وعواطف الجمهور. يصور الشاعر

فى هذه القصيدة ماضيا مجيداً لمدينة بلنسية ويقارنها بوضعها الحالى المؤسف وقد حولها أعداؤها إلى أطلال وقد دمروا مجده وكرامته.

ونرى شاعرا مجهولا يصور أوضاع المسلمين فى مدينة رندة التى استولى عليها المسيحيون (عام ٨٩٠ق) يعبر عن مشاعره تجاه ما حل بالإسلام بموسيقى حزينة ومشاعر صادقة وعميقة ويروى فى قصائد طويلة حزنه وتألمه بهذه الطريقة:

و كَانَتْ عُقَابًا لَا يُنَالُ مَطَارُهَا      وَمَعْقِلَ عِزِّ زَا حَمِ النَّسْرِ صَوْرُهَا

(خفاجى، ١٩٩٢م: ١٤١)

يصف الشاعر بلغة بسيطة وبلغية المدينة المجيدة التى أطاح بها المحتلون مشيرا إلى المكانة الرفيعة والمهيبه لهذه المدينة التى كانت دائما فى ذروة السلطة والاقنتدار. وقام بتشبيه مدينة رندة بانسان يحاول المقاومة أمام العدو ليرى للمتلقى مناعتها وعدم إمكانية الوصول إليها بسهولة....

يقول ابن حزم الشاعر الأندلسى (٤٢٦-٣٨٢ق / ١٠٣٥-٩٩٢م):

لَئِنْ كَانَ أَظْمَانًا فَقَدْ طَالَ مَا سَقَى      وَإِنْ سَاءَ نَافِيهَا فَقَدْ طَالَ مَا سَرَا

(ابن خطيب، ١٩٥٦م: ١٠٨)

وينعى الشاعر مدينة طافت حولها وأمضت ساعات سعيدة فى قصورها. إنه يصف المشهد بدقة وأناقة وذكاء ويرسم مفارقة تصويرية جميلة بين أيام مجد قرطبة الطويلة ومحتتها الحالية وذلك بهدف الحد من شدة تأثير المأساة على الجمهور. بحدة نظر خاصة يقارن الشاعر الكلمات السلبية "أظمانا وساءنا" بالكلمات الإيجابية "سقى وسرا" ويأضافة كلمة "طال" زاد وزن وتأثير الكلمات الإيجابية على السلبية لإعطاء المتلقى قليلا من الراحة كأنه يقول لاتفرغ فرغم أن هذه الحادثة المريرة قد أحزنتنا لكننا عشنا فى هذه الأرض لفترة طويلة فى نعمة وراحة. إذا فإن استخدام طريقة المفارقة الدلالية هذه قد أثرى معنى الشعر.

## البحث عن جذور الفتن والأحداث

الانقلابات والصراعات المختلفة والحروب المتتالية فى الشرق والغرب الإسلامى

تعد من أهم العوامل في تغيير مصير الأمم والشعوب. ومثال على ذلك مأساة بغداد في معركة أمين ومأمون (عام ١٩٦ق) التي أدت إلى اضطراب شديد في الحياة السياسية فى أراضى الأندلس مما دفع العديد من الشعراء للتعبير عن مشاعرهم وخلجاتهم النفسية تجاه وطنهم وأخذوا ليكون لحال بلادهم بتأليف قصائد غاية فى الروعة وقوة أثر فى المتلقى.

وهكذا ينشد الخريبي -وهو أحد شعراء العصر العباسي- فى رثاء بغداد:

فَلَمْ يَزَلْ وَ الزَّمَانُ ذُو غَيْرٍ      يَقْدَحُ فِي مُلْكِهَا أَصَاغِرُهَا  
حَتَّى تَسَاقَتْ كَأَسَا مُثْمَلَةً      مِنْ فِتْنَةٍ لَا يُقَالُ عَاثِرُهَا  
وَافْتَرَقَتْ بَعْدَ أَلْفَةِ شَيْعَاً      مَقْطُوعَةً بَيْنَهَا أَوْاصِرُهَا

(الطبرى، ١٩٦٦م: ٨ / ٤٤٨)

ويصور الشاعر غروب شمس السلطة فى بغداد وانهار حكم الخلفاء العباسيين ويشير إلى الخلافات والفتن المثارة من أجل الوصول الى السلطة والتي جرت بين الأخوين أمين ومأمون وهما يدمران المدينة كأنهم أناس سكارى لا يدرون ما يفعلون. ويلوم الشاعر مرتكبي هذه المأساة ولا يعتبر خطاياهم مغفرة. ثم يشير الى تشرد أقوام ورجال كبار كان لهم يد فى جهاز الحكومة ثم ابتعدوا وتنحوا عن القضايا السياسية وإن مثل هذا الانسحابات من السلطة أدت إلى خلافات وانقسامات بين العباسيين.

بعد أن احتل ألفونسو العاشر ملك قشتالة مدينة قرطبة عام ٦٦٥م صرخ أبوالبقاء الرندى (٦٠١ق - ٦٨٤ق / ١٢٠٤م - ١٢٨٥م) فى حالة من اليأس والحيرة ضد هذا الانهيار والاستسلام لمطالب العدو المسيحي وذلك فى قصيدته الشهيرة التى مطلعها:

لِكُلِّ شَيْءٍ إِذَا مَا تَمَّ نَقْصَانُ      فَلَا يُعَرِّ بِطِيبِ الْعَيْشِ إِنْسَانُ  
هِيَ الْأُمُورُ كَمَا شَاهَدْتُهَا دُولُ      مَنْ سَرَّهُ زَمَنٌ سَاءَ تَهُ أَرْزَانُ  
فَجَائِعِ الدَّهْرِ أَنْوَاعٌ مُنَوَّعَةٌ      وَلِلزَّمَانِ مَسَرَّاتٌ وَأَحْزَانُ  
وَلِلْحَوَادِثِ سُلُوَانٌ يُسَهِّلُهَا      وَمَا لِمَا حَلَّ بِالْإِسْلَامِ سُلُوَانُ  
دَهَى الْجَزِيرَةِ أَمْرٌ لَا عَزَاءَ لَهُ      هَوَى لَهُ أَحَدٌ وَانْهَدَّ نَهْلَانُ

(المقرئ، ١٩٦٨م: ٤ / ٤٨٧)

كما اختار أبوالبقاء مقدمة حكمية لقصيدته النونية وحذا فيها حذو شاعر العصر العباسي أبو الفتح البُستى معتمدا أسلوب وسياق قصيدة البستي النونية هادفا تعميق تأثير كلمته وزيادة حلاوتها وجمالها مصورا الأحداث والمصائب التي حلت بالأندلس وأهلها من نفى وتهجير وتفكك الأرض إلى خيانة بعض المرتزقة.

### التحسر والأسف

التحسر والإعراب عن الأسف على ما فات هو أحد الموضوعات الرئيسية في قصائد الرثاء وهي وسيلة لذكر المصيبة والتعبير عن الحزن والتأثر. وأهمية هذا الموضوع في مرثي شعراء الشرق والغرب الإسلامي كبيرة لدرجة أن بعضهم بدأ قصيدته بالدموع والتألم ومن بين هؤلاء الشعراء ابن الرومي (٢٢١/٢٨٣ ق - ٨٣٦/٨٩٦ م) الذي استطاع أن يجعل أجواء القصيدة حزينة باستخدام عناصر التصوير وأسئلة استفهام إنكارى وبطبيعة الحال زاد من جمال القصيدة حيث يقول:

أى نوم! من بعد ما حلَّ بالبص	رّة، من تلکمُ الهناتِ العظامِ؟
أى نوم! من بعد ما انتهك الزن	حُجَّ جَهَاراً، مَحَارِمَ الإسلامِ؟
هَلَفَ نَفْسِي عَلَيْكَ! أَيُّتُهَا البص	رّة هُفَاً كَمَثَلِ هَبِّ الضَّرَامِ!
هَلَفَ نَفْسِي عَلَيْكَ! يَا مَعْدِنَ الحَي	رَاتِ هُفَاً يُعْضُنِي إِبْهَامِي!
كم أغصوا من شاربٍ بشراب	كم أغصوا من طاعمٍ بطعامِ؟
كم ضنينٍ بنفسه رامٍ منجى	فَتَلَقَّوْا جَبِينَهُ بِالحُسَامِ

(ابن الرومي، ١٩٩٨ م: ٣ / ٣٣٩ - ٣٣٨)

يبدأ ابن الرومي مطلع قصيدته بترديد بعض الكلمات (أى، هلف، كم و...) ليخلق جوا عاطفيا حزينا من أجل لفت انتباه الجمهور إلى الموضوع وبتكرار هذه الكلمات يقدم الشاعر الخلفية للقارئ لإكمال القصيدة في ذهنه والبحث عن إجابات لها وبالتالي فإن أسلوب الاستفهام له دور فعال للغاية في تصوير التفاعلات الداخلية للشاعر والمتلقى. (أمين مقدسي، ١٣٩٦ ش: ٦٦) لأن السؤال عندما يبرز في مقدمة النص الشعري يقود بنية العبارة للانطلاق في دينامية التخيل وفورية التواصل مع المتلقى، وهو يمثل دائما

الذروة المدبية المسنونة للموقف الشعريّ، ويمتاز السؤال أيضاً بفاعلية التحوّل، وتنويع الدلالة، لأنه يسهم في إطلاق سراح الجمل من سجن التقرير أو الثبات، ويسهم أيضاً في شحن الموقف الشعري بفيض من الدلالات والإيحاءات المتتالية. (شرتح، ٢٠٠٥م: ١٢٥)

وهذا ابوالبقاء الرندي ينشد بتحسر:

فأسأل بَلَسِيَّةً ما شأنُ مُرسيَّةٍ      و أين شاطِبةٌ أم أين جَيَّانُ  
و أين قُرْطُبةٌ دارُ العلومِ، فكم      من عالمٍ قد سما فيها له شأنُ  
و أين حمصٌ و ما تحويه من نُزهٍ      و نهرها العذبُ فياضٌ و مَلانُ

(المقرى، ١٩٦٨م: ٤ / ٤٨٧)

ويؤكد الشاعر من خلال طرح الأسئلة على التناقض الواضح بين الماضي الذهبي لمدينة الأندلس وحالها المظلم ويرفع صرخاته الصاخبة المدوية ويشجع الناس على الجهاد. فإن تعدد الأسئلة في هذه القصيدة يدل على قلق الشاعر وضيقة والاضطراب الداخلي والألم والحزن في كلامه ويبدو أن الشاعر أراد ضمناً أو تلويحاً أن يشير إلى أن العقوق والإصرار على الخطيئة ونسيان الأوامر الإلهية جاء سبباً في حدوث هذه الكوارث والمصائب.

وفي قسم آخر منها يقول:

يا مَنْ لِدِلَّةِ قومٍ بَعَدَ عِزِّهِمْ      أحوالَ حالِهِمْ كُفْرٌ و طُغيانُ  
و طفلةٌ مثلِ حُسنِ الشَّمسِ إذ طَلَعَتْ      كأنما هي ياقوتٌ و مَرجانُ  
لِثَلِّ هذا يَذوبُ القَلْبُ من كَمَدٍ      إن كان في القَلْبِ إسلامٌ و إيمانُ

(المقرى، ١٩٦٨م: ٤ / ٤٨٨)

من السمات البارزة لهذه القصيدة تباين الكلمات في أبياتها وبهذه الطريقة استخدم الشاعر كلمات متناقضة مثل الكفر والإسلام والذل والكرامة والسيطرة والعبودية .. لتصوير الماضي الذهبي للأندلس والوضع الفوضوي الراهن للمسلمين. ومن خلال خلق مفارقة تصويرية في جميع أنحاء القصيدة استطاع أن ينقل للجُمهور المسافة الشاسعة بين عصر الشرف والإذلال للمسلمين في هذه الأرض.

## العاطفة الدينية

تظهر الحقائق التاريخية كيف اختفت آثار الإسلام وتغيرت مظاهر الشريعة بعد الغزو المغولي للأراضي الإسلامية والغزو الإسباني للأندلس حتى جعل البعض يقول: المتأمل في حقيقة هذا الصراع، يدرك أنه لم يكن صراعاً من أجل دوافع عسكرية أو أطماع اقتصادية، وإنما كان حرباً دينيةً تماثل الحملات المتعاقبة التي استهدفت أقطار العالم العربي وأصقاعه (حمدان، ٢٠٠٩م: ٥٩٠) ونتيجة لهذه التصرفات التي قام بها العدو المعتدى المحتل في تدمير آثار الحضارة الإسلامية أثرت مشاعر الشعراء ومواهبهم وقاموا بتصويرها في قصائد مؤثرة تصف ما حل بأرض الأندلس والشرق الإسلامي من خراب ودمار ونهب.

يمكن تلخيص الموضوعات الدينية المشتركة في مرثي مدن الشرق والغرب الإسلامية في ما يلي:

١- استنهاض الروح الجهادية: ابن رومي يجرس أهل البصرة على الجهاد ونضال المعتدين في قصيدته الميمية ويقول:

انفروا أيها الكرام خفافاً و تقالاً إلى العبيد الطغام

(ابن الرومي، ١٩٩٨م: ٣٤١/٣)

فالشاعر بكلماته الملحمية التي تنم عن حزنه الداخلي وانحيازه لوطنه وشعبه يدعو أهل البصرة إلى معركة أخرى من أجل الانتقام ولا يقبل الذل والصمت أمام العدو. وباستخدام عناصر تصويرية يحاول إثارة حماسة أهل البصرة وتشجيع الجهاد والانتقام من الزنكيين.

وقد أنشد شاعر مجهول في نفس الموضوع:

معاشر أهل الدين هبوا لصعفة وصاعفة وارى الجسوم ظهورها  
بأسد على جرد من الخيل سبق يدع الأعدى سبقها وزئيرها

(خفاجي، ١٩٩٢م: ١٤٥-١٤٦)

إنه مثل مؤرخ متفكر وواقعي استطاع أن يروي بشكل جميل الحقائق والوقائع المشؤومة لتاريخ بلاده وعند رؤية المشاهد المرعبة والمؤلمة في مدينة الأندلس يرثيها

بلغت غارقة في الحزن والأسى و يشجع الأندلسيين على الجهاد في سبيل الله لتطهير أرضهم من قذارة المحتلين وإبقاء الإسلام حياً من خلال الجهاد ويريد منهم أن لا يدعوا المسيحية تترسخ في تلك الأرض.

٢- الدعوة للصبر: لشعراء الشرق والغرب الإسلامي قصائد تستحق التأمل موضوعها تحمل المعاناة والصبر على المصائب. يقول أسامة بن منقذ (٥٨٤ ق / ١١٨٨م):

ما استدرج الموتُ قومي في هلاكهم      و لا تخرمهم مَنى و وحدانا  
فكنتُ أصبرُ عنهم صبراً محتسب      و أحملُ الخطبَ فيهم عزّاً و هانا

(أسامة بن المنقذ، ١٩٨٣م: ٣٥٦)

في عام ٥٥٢م دمر زلزال قوى قلعة شيزر وسبب في قتل الناس و خراب منازلهم. وهذا أسامة بن المنقذ يعبر عن حزنه وتحسره في قصيدته النونية وهو يصور بصدق عاطفته المشهد المؤلم لمقتل أهل شيزر ويعبر عن شدة المصاب وعمق ألمه تجاه الحدث داعياً للصبر والتحلى بالحلم في مواجهة سطوة الدهر.

يعتقد ابن الحزم انه من الجميل التحلى بالصبر في مواجهة الصعوبات ويقول:

سَنَصْبِرُ بَعْدَ الْيُسْرِ لِلْعُسْرِ طَاعَةً      لَعَلَّ جَمِيلَ الصَّبْرِ يُعْقِبَنَا يُسْرًا  
فَصَبْرُ السُّطُوِّ الدَّهْرِ فِيهِمْ وَحُكْمِهِ      وَإِنْ كَانَ طَعْمُ الصَّبْرِ مُسْتَقْبَلًا مَرًّا

(ابن الخطيب، ١٩٥٦م: ١٠٨)

مع دخول المحتلين مدينة قرطبة وما تبعها من الهجرة القسرية لسكان هذه المنطقة إلى أراض أخرى يدعو الشاعر أهل وطنه إلى الهدوء والصبر في مواجهة المصائب حتى لو كانت طعمه مريراً. يعد الصبر من التعاليم الدينية و يبشر الشاعر أهله بأن الفرج يأتي بعد الشدة و باقتباسه الآية القرآنية "إن مع العسر يسراً" يزيد من تأثير حديثه ويستعين بكلام الوحي ليضاعف حلاوة أفكاره و يجعل المشقات أكثر قبولا.

٣- تحويل المساجد إلى كنائس: نرى الشاعر التنوخي (٢٧٨-٣٤٢ق / ٨٩٢م-

٩٥٣م) ينعى مدينة بغداد بعد أن استولى عليه الصليبيون:

عَلَا الصَّلِيبُ عَلَى أَعْلَى مَنَابِرِهَا      وَقَامَ بِالْأَمْرِ مَنْ يَحْوِيهِ زُنَارُ

(ابن تغرى بردى، ١٩٦٣م: ٥٢/٧)

الشاعر يحكى فى هذه القصيدة عن المغول ويروى كيفية استيلائهم على بغداد وكيف بنوا منها قاعدة مسيحية وأحوا مظاهر الإسلام فيها ويصف غروب عزة الإسلام وعظمته ويعبر عن معاناته وحزنه تجاه هذا المصاب ويستخدم العاطفة الدينية لتحريض الناس وتشجيعهم على الجهاد والمقاومة.

بعد سقوط مدينة رندة فى يد الأعداء الإسبان يصف أبوالبقاء حزنه على اختفاء آثار الإسلام فى هذه المدينة على النحو التالى:

تَبْكِي الحَنِيفِيَّةُ البِيضَاءُ مِنْ أَسْفٍ      كَمَا بَكَى لِفِرَاقِ الإِلْفِ هَيْمَانُ  
على ديارٍ من الإسلام خاليةٍ      قد أَقْفَرَتْ و لها بالكُفْرِ عُمرَانُ  
حيثُ المساجدُ قد صارت كَنائسَ ما      فيهنَّ إلا نواقيسُ و صُلبانُ  
حتى المحارِبُ تَبْكِي و هى جامِدةٌ      حتَّى المَنابِرُ تَرثِي و هى عيدانُ

(المقرى، ١٩٦٨م: ٤/ ٤٨٧)

فالشاعر يجرس الناس على الجهاد ويحث على المقاومة والصمود بحيث اتخذت هذه القصيدة جانبا إنسانيا وخطت بين صدق العاطفة والصدق الفنى وإن عواطفها الدينية الصادقة تثير مشاعر وضمير الرجل المسلم. إن استمرارية العبارات والصور الفنية لهذه القصيدة يؤكد موقف الشاعر من العدو المحتل وقوة إيمانه بضرورة إخراج العدو من المدن التى احتلها بالقهر والنهب.

أوجه الافتراق (مواضيع غير مشتركة)

الاستغاثة

شعر الاستغاثة وهو يعرف أيضا بمسميات أخرى منها (الاستنجا، الاستنفا، الاستصراخ، الاستعطاف) (الدايه، ٢٠٠٠م: ١٦٠؛ زرقان، ٢٠٠٨م: ٨)، وهو من ابداعات الشعر الأندلسى التى تحمل عاطفة صادقة وموجعة وتعكس صعوبات ومصائب وتحديات المسلمين فى الأندلس فى ذلك الحين من الزمن. ولعل الاستنجا خارج الأندلس أقوى بكثير منه داخل الأندلس، وذلك لأن الأندلس كانت تمر بظروف صعبة جدا، والمغرب العربى كان ينعم بالاستقرار وعلى مقربة من الأندلس مما دعا أهل

الأندلس للتوجه بأنظارهم إلى إخوانهم في المغرب طلبا للنجدة والعون، فكان الشعراء خير معبر عن تطلعات أهل الأندلس في الدعوة للتوحد وللنجدة (قطريب، ٢٠١٧م: ١٨٧-١٨٨) شاعت قصائد الاستغاثة بسرعة في الأندلس وتفوقت على مثيلته في شعر الشعراء الشرقيين على الرغم من أسبقيتهم واستمر هذا النوع من الشعر إلى آخر الزمان العربي في الأندلس. (الدايه، ٢٠٠٠م: ١٦١) «إن الأندلسيين اتجهوا بندا استغاثاتهم إلى المرابطين ثم إلى الموحدّين والمرينيين والحفصيين، ثم إلى دولة الماليك في مصر، ودولة العثمانيين في القسطنطينية، يستنجدون بهم ويستمدون العون منهم والتأييد.» (الباشا، ٢٠٠٠م: ٢٢٥)

أنشد ابن الأبار بأسلوب الاستغاثة وهو يستجد المسلمين لنجدة الأندلسيين:

أَدْرِكْ بِحَيْلِكَ حَيْلَ اللَّهِ أَنْدَلَسَا      إِنَّ السَّبِيلَ إِلَى مَنْجَاتِهَا دَرَسَا  
وَهَبْ لَهَا مِنْ عَزِيزِ النَّصْرِ مَا التَّمَسَتْ      فَلَمْ يَزَلْ مِنْكَ عَزُّ النَّصْرِ مُلْتَمَسَا  
وَفِي بَلَنْسِيَةِ مِنْهَا وَقُرْطُبَةَ      مَا يَنْسِفُ النَّفْسَ أَوْ مَا يَنْزِفُ النَّفْسَا  
صَلِّ حَبْلَهَا أَيُّهَا الْمَوْلَى الرَّحِيمُ فَمَا      أَبْقَى الْمِرَاسُ لَهَا حَبْلًا وَلَا مَرَسَا

(ابن الأبار، ١٩٩٩م: ٤٠٨، ٤١٠)

وفي هذه القصيدة التي تبدأ بأجواء حزينة يخاطب الشاعر ملك تونس أبابكر بن زكريا ويدعوه إلى الجهاد والدفاع ومساعدة ودعم أهل الأندلس ويروي المصائب التي حلت بمدينة بلنسية. يبدأ ابن الأبار هذه العريضة بشكل غير مباشر بمدح الخليفة ثم يطلب منه المساعدة لإتقاذ المدينة وسكان بلنسية والدفاع عن أرضهم.

و يقول في قسم آخر:

طَهَّرْ بِلَادَكَ مِنْهُمْ إِنَّهُمْ نَجِسٌ      وَلَا طَهَّارَةَ مَا لَمْ تَغْسِلِ النَّجَسَا

(ابن الأبار، ١٩٩٩م: ٤١٢)

ويشير ابن الأبار إلى الأعمال المخزية للمحتلين ويذكر سوء أفعالهم وشناعة اعمالهم ليثير في ملك تونس مشاعر الحماسة والحمية واستعداد للجهاد والدفاع والإسراع بطرد المحتلين من أرض المسلمين. ويطلب منه أن يطهر أرضه من قذارة من وجود هؤلاء الكافرين النجسين.

## الحنين للوطن

ومن السمات البارزة الأخرى فى الشعر الأندلسى الشوق إلى الأرض والحنين للوطن ويمكن أن يعزى سبب هذا الشوق إلى عوامل مختلفة منها مثل القضايا السياسية والاجتماعية وطبيعة الأندلس «وذلك لتأثير البيئة الأندلسية من نواحيها المختلفة سياسية واجتماعية وطبيعية. فقد تألق هذا الموضوع على نحو فريد من القرن الخامس الهجرى.» (بهجت، ١٩٨٨م: ٣٣٢) أجبر الأندلسيون على مغادرة وطنهم والهجرة من وطنهم وذلك بعد سقوط مدن الأندلس بسبب النزعات الانفصالية والغزو الإسبانى وكان ينتقل بعضهم إلى الغرب وبعضهم إلى الشرق. يصف عبدالعزيز عتيق هذه التجربة الغريبة للإنسان المسلم ويقول: وليس كالاغتراب شىء يزيد من حنين الإنسان إلى وطنه وتعلقه به. وهذا ما حدث لهؤلاء الأندلسيين، سواء أكان اغترابهم بالانتقال من الغرب إلى الشرق، أم بالانتقال لسبب أو آخر من مدينة إلى مدينة بالأندلس. فكانوا كلما اشتدت عليهم وطأة الاغتراب ونالت من نفوسهم، فزع الشعراء منهم إلى الشعر يبثونه توفهم وحنينهم المشبوب إلى أوطانهم وأهلهم وأحبابهم (عتيق، ١٩٧٥م: ٢٧٣) بما أن هذا الموضوع الشعرى (الحنين للوطن) لم يوجد فى رثاء المدن الشرقية فنذكر فيما يلى شواهد من قصائد الشعراء الأندلسيين.

فابن شهيد (٤٢٦-٣٨٢ق/ ٩٩٢-١٠٣٥م) ينشد لوطنه ويعبر عن حنينه إلى الأيام

الحوالى:

عَهْدِيْ بِهَا وَالسَّمْلُ فِيهَا جَامِعٌ	مِنْ أَهْلِهَا وَالعَيْشُ فِيهَا أَخْضُرٌ
وَالدَّارُ قَدْ ضَرَبَ الكَمَالُ رِوَاقَهُ	فِيهَا وَبَاعَ النَّقْصُ فِيهَا يَقْصُرُ
وَ القَوْمُ قَدْ أَمَّنُوا تَغْيِرَ حُسْنِهَا	فَتَعَمَّمُوا بِجَمَالِهَا وَ تَأَزَّرُوا

(ابن شهيد، لاتا: ١١٠)

رغم أن «ابن شهيد لم يفارق قرطبة وعاش نهاية أيام العاصمة» (مكى، ١٩٨٧م: ٢١٥)، لكنه نظم قصائد رائعة يرثى فيها أرض الوطن ومجدها القديم ويعبر عن حماسة لها ومن خلالها ينقل حزنه وأسفه للجمهور. إن حنين ابن شهيد إلى مسقط رأسه هو شغف زمنى لأنه نظم مراثيه متأثرا بذكر الأيام الحوالى وبلغة بسيطة حزينة شجع فيها

المسلمين على الجهاد والانتفاضة على أوضاع المجتمع البائسة في ذلك الوقت على شكل لغة حزينة.

وهذا ابن حزم الشاعر الأندلسي الذي هرب من مدينة قرطبة إلى مدينة المرية عام ٤٠٤ق (ابن حزم، طوق الحمامة، ١١٢) يصف مدينة قرطبة بعبارات مريرة:

فيا دارُ لم يَفْركِ مِنَّا اختيارُنا      و لو أَنَّا نَسْتَطِيعُ كُنْتَ لَنَا قَبْرًا  
ولكنَّ أقداراً مِن الله أَنْفَذَتْ      تُدَمِّرُنَا طوعاً لِمَا حَلَّ أَوْ قَهْرًا  
و يا خيرَ دارٍ قد تُرَكِّتِ حَمِيدَةً      سَقَّتْكِ العَوادي ما أَجَلٌ وما أُسْرًا

(ابن الخطيب، ١٩٥٦م: ١٠٨)

يصور الشاعر بطريقة مقارنة الماضي المجيد والحاضر المضطرب للمدينة وبلغته الرثاء يعرب عن أسفه وندمه على مغادرة مدينة قرطبة ويعتقد الشاعر أن سبب دمار المدينة ونفيه هو الإرادة الإلهية إذا فقد دارت الأقدار وعليه لا مفر لك إلا أن تستسلم للمشيئة الإلهية.

### النتيجة

غالبًا ما تكون لمراثى المدن في الأندلس والشرق الإسلامي موضوعات ومحتويات مشتركة أبرزها: وصف ازدهار المدينة ومجدها وروقتها قبل الخراب، التحسر والأسف على ما فات، تتبع جذور الفتن والأحداث والعاطفة الدينية. ومن بين هذه الموضوعات نرى وصف ازدهار المدينة ومجدها قبل الفتنة هو أكثر وفرة في قصائد شعراء القطرين. لقد أبدع الشعراء الأندلسيون في معالجة بعض القضايا مثل شعر الاستغاثة وكان هدف هؤلاء من تأليف هذه القصائد التي تبدأ في الغالب بالمطالع الحكيمية والثناء، طلب حماية المسلمين وخلصهم من سلطة المحتلين والسعي لتحقيق الأمن والسلام لأبناء الأندلس.

كما ينتشر موضوع الحنين للوطن في القصائد الأندلسية أكثر منه في الشرق الإسلامي لأن الشعراء هذه البلاد أجبروا على الهجرة من وطنهم إثر الحروب والصراعات واستيلاء الأجنبي على المدن الأندلسية بينما نادرًا ما نشاهد هذه الظروف في الشرق

الإسلامي. لذلك فإن حزن الشاعر الأندلسي هو حزن الحنين للوطن ويعبر عن شدة انتماء الانسان الأندلسي وتبعيته العاطفية للوطن المهجور لكن حنين شعراء الشرق العربي يعنى حزنهم على الآثار التي خلفتها الفتنة والفوضى فى مدنهم التي لم يتركها الشاعر فى أغلب الأحيان.

إن رثاء المدن هو فن أندلسى أصيل كانت دوافعه متشابهة إلى حد ما فى الشرق والغرب. وقد وصل الشعراء الأندلسيون إلى الكمال فى هذا الفن الشعرى بسبب كثرة الأحداث والصراعات والحروب المختلفة وخلقوا العديد من الروائع فى هذا المجال.

### المصادر والمراجع

ابن الأبار، ابو عبدالله. (١٩٩٩م). ديوان. قراءة وتعليق عبد السلام الهراس. المغرب: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

\_\_\_\_\_ (١٩٨٦م). تحفة القادم. تحقيق إحسان عباس. ط ١. لبنان: دار الغرب الإسلامى.  
ابن تغرى بردى، جمال الدين. (١٩٦٣م). النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة. مصر: وزارة الثقافة.

ابن حزم، ابو محمد على بن حمد. (١٩٥٠م). طوق الحمامة فى الألفة والآلاف. تحقيق حسن كامل الصيرفى. الناشر: مطبعة حجازى.

ابن الخطيب، لسان الدين. (١٩٥٦م). أعمال الأعلام. تحقيق بروفنسال. ط ٢. لبنان: دار المكشوف.  
ابن الرومى، ابو الحسن. (١٩٩٨م). ديوان. تحقيق عبدالأمير على مهنا، ط ٢. لامك: دار ومكتبة الهلال.

ابن شهيد، ابو عامر. (لاتا). ديوان. جمعه وحققه يعقوب زكى. راجعه محمود على مكى. القاهرة: دار الكاتب العربى.

اسامة بن المنقذ. (١٩٨٣م). ديوان. تحقيق أحمد أحمد بدوى وحامد عبد المجيد. ط ٢. بيروت: عالم الكتب.

الأعشى الكبير، ميمون بن قيس. (٢٠١٠م). ديوان. تحقيق محمود ابراهيم محمد الرضوانى. ط ١. الدوحة - قطر: وزاره الثقافة والفنون والتراث.

أمين، أحمد. (١٩٩٩م). ظهر الإسلام، ط ٧. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.  
أمين مقدسى، أبو الحسن وسيد بيمان حسيني. (٢٠١٧م). «دلالة التكرار فى شعر بدوى الجبل».

الأدب العربى. السنة التاسعة. العدد ١. صص ٧٢-٥٣  
الباشا، مهجة. (٢٠٠٠م). رثاء المدن والممالك فى الشعر الأندلسى اتجاهاته - خصائصه الفنية. ط ١.

- دمشق: شرع.
- بَهجَت، مُنجد مصطفى. (١٩٨٨م). الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة. الموصل: مديرية دار الكتب للطباعة والنشر.
- البيومي، محمد رجب. (١٩٨٠م). الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير. المملكة السعودية: المجلس العلمي.
- الحلّي، عبد الحسين عباس. (٢٠٠٨م). الرثاء في الشعر العربي. العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري. ط ١. لبنان: دار القارىء.
- حمدان، عبدالرحيم. (٢٠٠٩م). «صورة المدينة الإسلامية المحتلة في الشعر الأندلسي في عهد المرابطين والموحدين». فلسطين. مجلة جامعة النجاح للأبحاث. المجلد ٢٣(٢). صص ٦١٢-٥٨٧
- خفاجي، محمد عبدالمنعم. (١٩٩٢م). الأدب الأندلسي التطور والتجديد. ط ١. لبنان: دار الجليل.
- الدايه، محمد رضوان. (٢٠٠٠م). في الأدب الأندلسي. ط ١. لبنان: دار الفكر المعاصر.
- رشيد، ناظم. (١٩٨٩م). الأدب العربي في العصر العباسي. الموصل: دارالكتب.
- زرقان، عزوز. (٢٠٠٨م). شعر الإستصراخ في الأندلس. ط ١. لبنان: دار الكتب العلمية.
- الزيّات، عبدالله محمد. (١٩٩٠م). رثاء المدن في الشعر الأندلسي. ط ١. بنغازي: جامعة قارْيُونس.
- السري الرّفاء. (١٩٩٦م). ديوان. تقديم وشرح كرم البستاني. ط ١. بيروت: دار صادر.
- شريتج، عصام. (٢٠٠٥م). ظواهر اسلوبية في شعر بدوى الجبل. دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب.
- الشكعه، مصطفى. (٢٠١٤م). الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه. لبنان: دار العلم للملايين.
- ضيف، شوقي. (١٩٥٥م). الرثاء. ط ٤. القاهرة: دارالمعارف.
- \_\_\_\_\_ (١٩٦٠م). الفن ومذاهبه في الشعر العربي. ط ١١. القاهرة: دارالمعارف.
- \_\_\_\_\_ (١٩٨٩م). تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات الأندلس. القاهرة: دارالمعارف.
- الطبري، محمد بن جرير. (١٩٦٦م). تاريخ الرسل والملوك. تحقيق محمد ابوالفضل إبراهيم. ط ٢. مصر: دار المعارف.
- الطربولي، محمد عويد. (٢٠١٢م). المكان في الشعر الأندلسي من عصر المرابطين حتى نهاية الحكم العربي. ط ١. الأردن: دار رضوان.
- عتيق، عبد العزيز. (١٩٧٥م). الأدب العربي في الأندلس. بيروت: دار النهضة العربية.
- قطريب، يوسف إبراهيم. (٢٠١٧م). أدب الوفادة لدى أدباء الأندلس داخل وخارج الأندلس. لبنان: دار الكتب العلمية.
- الكفاوين، شاهر عوض. (١٩٨٤م). الشعر العربي في رثاء الدول والأمصار حتى نهاية سقوط الأندلس. مكة المكرمة: جامعة أم القرى.

المقري، احمد بن محمد. (١٩٦٨م). نفع الطيب من غضن الأندلس الرطيب. تحقيق إحسان عباس. بيروت: دار صادر.

مكي، الطاهر أحمد. (١٩٨٧م). دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة. ط٣. القاهرة: دار المعارف.

E. Elinson. Alexander. Looking back at Al-Andalus: The poetics of loss and nostalgia in Medieval Arabic and Hebrew literature. Leiden. Brill. 2009.

Ekberg. Ibrahim »The tears of the prayer niche«. Handledare: Lena Ambjorn. New York. ARAKO .2010.